القيمة الصوتية للخطاب القرآني (دراسة في عناصر وأدوات تشكيل النسق الصوتي)

أ.م.د. محمّد ضياء الدّين خليل إبراهيم
كليّة الإمام الأعظم الجامعة/ قسم اللّغة العربيّة

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، وأشرف الصلاة وأتم التسليم على سيد الأولين والآخرين، سيدنا ومولانا محمد الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمَّا بعد: فمن المعلوم أنَّ الكلم يتركب من ثلاثة: حروف هي من الأصوات، وكلمات هي من الحروف، وجمل هي من الكلم، والقرآن يتناول هذه الثلاثة كلها بحيث إنَّ المعجزة التي قامت في القرآن خرجت من جميع تلك العناصر، ومزية القرآن الكريم تظهر في توازن حروفه وائتلاف مخارجها وتناسب أصواتها، والفصاحة فيه وجه من تأليف الحروف ونسق اللفظ، والحرف الواحد من القرآن معجز في موضعه؛ لأنَّه يمسك الكلمة التي هو فيها ليمسك بها الآية والآيات الكثيرة، وهذا هو السر في إعجاز جملته إعجازاً أبدياً. وللفاصلة قيمتها الصوتية في السياق القرآني، فما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلَّا صورة تامة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقاً عجيباً يلائم نوع الصوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب.

وللحركات الصرفية والنحوية في السياق الصوتي أهمية فهذه الحركات ما هي إلَّا مظاهر الكلم، حتى إنَّ الحركة ربما كانت ثقيلة في نفسها لسبب من أسباب الثقل أيّاً كان، فلا تُعْذَبُ ولا تُسَاغُ، وربما كانت أوكس النصيبين في حظ الكلام من الحرف والحركة، فإذا هي استعملت في القرآن رأينا لها شأناً عجيباً، ورأينا الأحرف والحركات التي قبلها قد امتهدت لها طريقاً في اللسان، واكتنفتها بضروب من النغم الموسيقي حتى إذا خرجت فيه كانت أعذب شيء وأرقّه، وجاءت متمكنة في موضعها، وكانت لهذا الموضع أولى الحركات بالخفة والروعة، وهذا النظم الموسيقي في القرآن خاص به لايتفق فيه مع نظم آخر. إذاً يظهر لنا مِمَّا تقدم ذكره أنَّ القرآن الكريم قد جمع في سياقه بين مزايا الشعر والنثر معاً من حيث إنَّه أعفى التعبير القرآني من قيود القافية الموحدة والتفعيلات التامة فنال بذلك حرية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه، وأخذ في الوقت ذاته من الشعر الموسيقى الداخلية والفواصل المتقاربة في الوزن التي تغني عن التفاعيل، وأخذ التقفية المتقاربة التي تغني عن القوافي. وليست المسألة مقتصرة على أصوات وأحرف وحركات الكلمة، بل حتى اللفظة في السياق نرى أنَّها تؤدي غرضين في آن واحد، فهي تؤدي معناها في السياق، وتؤدي تناسباً في الإيقاع دون أن يطغى هذا على ذاك أو يخضع النظم للضرورات.

وقد أردنا في بحثنا هذا أن نقف عند هذه الجماليات التعبيرية في استعمال الصوت وتوظيفه لخدمة الخطاب القرآني، فنحلل هذا الاستعمال ونشرح أسسه ونظهر مرتكزاته ونبيّن وجه الإعجاز فيه. لذا جاءت هذه الدراسة لتسلط الضوء على هذا الاستعمال والتوظيف القرآني للصوت وطابعه جرساً وزمناً، وعبر عناصر تشكله حركة وحرفاً وكلمة دون التطرق إلى ظواهر الإيقاع الداخلي للآية الكريمة كانعدام الرتابة أو التكرار المملل أو التقابل، وكذلك الإيقاع الخارجي كالفاصلة القرآنية والسياق الصوتي العام في السورة ثم في القرآن الكريم كله. ولأجل الوصول إلى هذا الهدف قسم البحث على ثلاثة مباحث رئيسة، هي:

المبحث الأول: وقد جاء بعنوان: ((الصوت والوحدة الصوتية))،وقد تضمن مطلبين، الأول: تضمن دراسة هوية الصوت وطابعه، والثاني: تضمن دراسة القيمة الزمنية والوحدة الصوتية لأصوات القرآن الكريم. والمبحث الثاني جاء بعنوان: ((عناصر تشكل النسق الصوتي)) الحركة والحرف، وقد تضمن مطلبين، الأول: تضمن دراسة الحركة وطبيعتها وتوظيفها في الخطاب القرآني، والثاني: تضمن دراسة الحرف الذي يعد الوحدة الصوتية الصغرى التي تتألف منها الكلمة. والمبحث

الثالث: وقد جاء بعنوان:((الخصائص الصوتية للمفردة القرآنية))،وقد تناولنا في هذا المبحث أهم الخصائص الصوتية التي اشتملت عليها اللفظة القرآنية، بعد أن تناولنا بالدراسة الصوت والحركة والحرف، فهذه الثلاث تتشكل لتكون الكلمة أو المفردة، ومن هذه الخصائص: انسجام الصوت مع المعنى، واستعمال صيغ دون صيغ أخرى، وألفاظ كثيرة الحروف ...الخ. ونرجو أن تكون هذه الدراسة قد أعطت الموضوع حقَّه، وأن يفيد منه الباحثون مثلما أفاد البحث من غيره.

المبحث الأول ((الصوت والوحدة الصوتية))

أولاً: هوية الصوت وطابعه:

مادة الصوت في اللغة ـــ سمعاً وأداءً ـــ ذات أثر في النفس انفعالاً وذهناً وخيالاً، كما أنَّ الحالة النفسية قد تكون سبباً في تنويع الصوت عند التعبير دلالةً وإيحاءً بحيث تكون الكلمة بأصواتها خطوة إلى المعنى وهو في طريقه إلى النفس. وللحرف صوت واحد أو أكثر يظهر فيه غنى اللغة وثراؤها بأصواتها، ولكل صوت في النسق القرآني فضلاً عمَّا ذكر صفات تميزه عن غيره من أصوات اللغة وفقاً لضبطه على قواعد علم التجويد والقراءات وعلوم اللغة، فلكل صوت جرسه ووقعه وهويته، وقد ضبط بالتلقي والمشافهة فحافظ على كيانه وأخذ خصوصيته سواء من حرفه المكتوب أو المنطوق الذي انطلق منه، أو من علاقته بما سبقه أو لحقه من الأصوات والحروف الأخرى[١].

والصوت في اللغة تميز هويته عن غيره عوامل أخرى مختلفة: سواء من حيث مخرجه فهذه حروف حلقية، وتلك حروف لهوية، وأخرى شجرية، ورابعة ذلقية وخامسة لثوية، وسادسة شفوية[٢]،وهكذا تحددت أماكن نطقها وصيغ لفظها وعلاقتها بعضو أو جزء من أعضاء جهاز النطق في الإنسان ابتداءً من الرئتين وانتهاءً بالخياشيم والشفتين، أو من حيث أثره في السمع: فهذا مهموس، وآخر مجهور، وثالث مشدد، ورابع رخو، وآخر مقلقل، وهكذا، فإنَّ لكل صوت هوية سمعية أو نطقية تميزه عن غيره من الحروف فتعطيه سمته الخاصة به، فهذه الباء، وهذه السين، وتلك الكاف وهكذا، ومع تبادل الصوت مع الأصوات الأخرى يتحقق نسق متميز يجعل للغة العرب وقعاً خاصاً في ساحة التعبير اللغوي[٣]. وما دام اللفظ مؤلفاً من أصوات فإنَّ لكل لفظ إيقاعاً خاصاً به ، وبتعميم ذلك على نسق اللغة باعتباره مؤلفاً من ألفاظ وكلمات فإنَّنا نصل إلى ظاهرة عامة مؤدّاها أنَّ جميع الألفاظ العربية يحمل كل منها نمطاً إيقاعياً، ويصبح الكلام في مجموعه واحتمالاته التركيبية التي لاحصر لها تركيبا لنماذج إيقاعية تنتشر على ساحة النظم كله. وهذه الخاصية الصوتية تبلغ ذروتها من الجمالية وكفاءة الأداء انسجاماً مع المعنى في النسق القرآني. إذ إنَّ تتبع قيمة الصوت(هوية وطبيعة)في الخطاب القرآني يكشف عن ظواهر جمالية ودلالية متعددة.

فالحروف التي تشكل فواتح عدد من السور تكشف دلالتها الصوتية من حيث تكرار هذا الصوت في السورة أكثر من غيره ما يضفي على نسقها الصوتي العام ملمحاً متميزاً، فسورة(ق)مثلا اشتملت على هذا الصوت أكثر من أي صوت آخر، وسورة (ص) مبنية على حرف الصاد، وهذا تؤكده كثرة الخصومات الواردة فيها,وسورة الشعراء(طسم)وسورة النمل(طس) يبلغ حرف السين في كل منها أربعاً وتسعين مرة[٤]. ومن حيث مخارج الحروف فالنسق القرآني يستهدف اللفظ المطلوب والنظم المرغوب بيسر وعفوية ومناسبة، وحيث تقترب هذه المخارج فيصعب نطقها مع بعضها متوالية، يتجافى النسق القرآني عنها إلَّا عندما تزول فيها تلك الصعوبة. فليس في القرآن الكريم حاء بعدها حاء لا حاجز بينهما في كلمة واحده لثقل ذلك وتعذر لفظه، وما ورد منها في كلمتين متجاورتين فلا يتجاوز المرتين جاءتا على قدر من اليسر والسهولة المعجزة، وهي في قوله تعالى:((ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله))(سورة البقرة: ٢٣٥) ،فجاءت الحاء الأولى مكسورة، وتلتها حاء

مفتوحة ساعدت على سهولة انتقال الصوت بعفوية وطلاقة ، وفي قوله تعالى:((وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا))(سورة الكهف: ٦٠)، فقد جاءت الحاء الأولى مضمومة والثانية مفتوحة فساعد ذلك أيضاً على سهولة اللفظ والانتقال إلى غيره. كما أنَّه ليس هناك كافان ليس بينهما حرف في كلمة واحدة إلّا في موضعين:((فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشدَّ ذكرا))(سورة البقرة:٢٠٠) ،وقوله تعالى:((ما سلككم في سقر))(سورة المدثر: ٤٢). وقد يكون في توالي بعض الحروف وتكرارها في النظم ما يثقل على اللسان والسمع وينفر منه الطبع إلّا أنَّه حيث يرد في القرآن الكريم منه شيء فإنَّما يكون في غاية القبول والألفة والسهولة.

فقد جمعت آية في سورة هود ستة عشر ميماً، بين ميم عادية وميم متولدة من إدغام أو تنوين في قوله تعالى:((وقيل يا نوح اهبط بسلم منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم))(سورة هود: ٤٨)، ولا تجد فيما تقرأ ثقلاً أو صعوبة في تلاوتها. وهذا الشأن من اطراد النسق الصوتي المألوف يرد حسب الموقف لكنه هو هو في انسجامه وتجاوب الأذن والسمع مع اطرداه ألواناً وأشكالاً في مختلف دواعي التعبير حرباً وسلماً وتشريعاً وتوجيهاً، تأصيلاً وتفضيلاً، قصة وعبرة، مثلاً وحجاجاً، بياناً وتعليلاً وتعديلاً، يستخدم الصوت المناسب وقد انكشف عنه ظلمة التعقيد والتثقيل، وبان منه روعة رائعة وجمال أصيل.

وقد راعى القرآن الكريم التوازن والانسجام بين الأصوات عند توزيع الحروف في الكلمات التي اختارها وشكل منها نظمه على طريقة العرب في ترك الاستثقال وتجنب جمع الأصوات متقاربة المخارج[٥], من مثل تجنب جمع الزاي مع الظاء , والسين والضاد والذال , والجيم مع القاف والظاء والطاء والغين والصاد والحاء مع الهاء ... إلى غير ذلك , وقد علَّل ابن جني ذلك بقوله" فأكثره متروك للاستثقال وبقيته ملحقة به ومقفاة على أثره"[٦].

ومن قبل نبه الجاحظ إلى مثل ذلك في البيان والتبيين[٧]، ثم ابن الأثير بعده في المثل السائر[٨]،ومن ذلك أيضاً ملاحظة آيات تجمع حروف المعجم كلها لا يظهر في تلاوتها شيء غير مألوف على الآذان والسمع, ومن ذلك قوله تعالى:((محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا، سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما))(سورة الفتح: ٢٩).

وفي السياق القرآني ظاهرة تميزت بها تلاوة القران الكريم وساهمت في إغناء الأثر الصوتي فيه,تلك هي مساهمة صوت التنوين والغنة مع ما يليها من بعض الحروف ساكنة أو متحركة ، فإنَّها تزيد من ترددها وتكرارها بما يكسب السياق إيقاعاً غنياً ذا رنينٍ وحنينٍ وشفافية، ومثل ذلك عبارة من آية في سورة المسد هي قوله تعالى:((في جيدها حبل من مسد))(سورة المسد: ٥)، ففيها ميمان لكن مع التنوين والنون والميم كرر صوت الميم أربع مرات. وأطول كلمة في القران على عشر أحرف مثل((ليستخلفنَّهم)) (سورة النور: ٥٥)، و((أنلزمكموها))(سورة هود: ٢٨)، أو إحدى عشرة

كلمة((فأسقيناكموه))(سورة الحجر: ٢٢) ، ومع ذلك فإنَّ قراءتها وإيقاعات حروفها كل ذلك مِمَّا ألفه السمع ويستوعبه النطق ويستسيغه الفهم[٩].

ومن المناسب عند الحديث عن هوية الصوت وطابعه أن نتحدث عن رأي الجاحظ في دقة أسلوب القرآن الكريم في اختيار ألفاظه وإهماله ألفاظاً أخرى، وتوظيف بعضها في مجال دون مجال آخر إذ يقول: ((وقد يستخف الناس ألفاظاً يستعملونها وغيرها أحقُّ بذلك منها، ألا ترى أنَّ الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلَّا في موضع العقاب أو الفقر المدقع والعجز الظاهر، بينما الناس يذكرون الجوع في القدرة والسلامة، ولا يذكرون السغب في هذا المكان، وكذلك ذكر المطر لأنَّك لا تجد القرآن يلفظ به إلَّا في موضع الانتقام، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وذكر الغيث))[١٠].

ثم إنَّ حروف المد واللين ساهمت في تنويع الصوت داخل الأصل الواحد للمادة الواحدة، من مثل: عالم، عليم، معلوم، وساهمت الحركات المقابلة لها في تنويعات أخرى للمعنى الواحد عند تبدل الصيغ الصرفية من: عَلِمَ إلى عُلِمَ، وجاءت الكلمة مرة على صيغة أمْر في قوله تعالى:((أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عمَّا يشكرون))(سورة النحل: ١)،وقوله تعالى((يتنزَّل الأمرُ بينهنَّ))(سورة الطلاق: ١٢)، ومرة على صيغة: إمْر ، في قوله تعالى:((لقد جئتَ شيئا إمرا))(سورة الكهف: ٧١)، فالأولى(أمر) تعني قضاء الله تعالى، والثانية تعني: شيئاً عجيباً[١١].

وأصوات كلمة (فامشوا) في قوله تعالى:((هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور))(سورة الملك: ١٥)،غير أصوات كلمة (فاسعوا) في قوله تعالى:((يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع))(سورة الجمعة: ٩)، وبالتالي فإنَّ حرف السين والعين مقابل الميم والشين يمثلان الصفات التالية[١٢]: فالميم شفوية ذلقية والشين رخوة متفشية ، في كلمة (فامشوا) ويعني الأناة والضعف ، والسين مهموسة مصغرة ، والعين حلقية ، مجهورة في كلمة (فاسعوا) تعني الشدة والقوة .

وهذا التحديد في الدلالة الصوتية يعكس أثره على الدلالة المعنوية للتفريق بين معنى امشوا والمقصود به التوجه بانسياب وأناة ، ومعنى اسعوا والمقصود القصد بجد وعزم . وهكذا فإنَّ للحرف في اللغة العربية إيحاءً خاصاً، فهو وإن لم يكن ليدل دلالة قاطعة على المعنى فإنَّه يدل دلالة اتجاه وإيحاء، ويثير في النفس جوّاً يهيئ لقبول المعنى ويوحي به. ومن ذلك أنَّ اشتراك كلمات في حرف أو حرفين من الحروف الأصلية يفيد اشتراكهما في شيء من المعنى أو في معنى عام جامع لمعانيها، وقد نبه ابن جني في مواطن كثيرة من كتابه الخصائص إلى التقابل بين المعاني والحروف في الكلمات وعقد فصلاً عنوانه:(في تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني)، وفصلاً بعنوان:(إمساس الألفاظ أشباه المعاني)[١٣]. ولصوت الإمالة أثر في غنى الكلمة وشفافيتها وانسيابها في وقع جمالي خاص بالسياق الصوتي داخل الكلمة وفي نهايتها وفقاً لما حوته قواعد التلاوة لدى القرّاء ومدارسهم المختلفة. وللحرف والصوت مزية أخرى تتعلق بهويته وطابعه وجرسه، تلك هي ثبات هذا الصوت عبر القرون تتوارثه الأجيال وتتجمع الخبرة المتراكمة حوله فلا تضيع ولا تزول، إذ لا يزال هذا القرآن الكريم بأصواته وحروفه وكلماته وسكناته وأدائه وقواعد تلاوته يصلنا غضاً طرياً من فم رسول الله(ﷺ) وصحابته إلى الأجيال التالية مِمَّا لم يتوافر لأي لغة من لغات البشر.

ثانياً : القيمة الزمنية والوحدة الصوتية :

مثلما تبين أنَّ لصوت الحرف هوية وجرساً خاصاً يميزه من غيره، فإنَّ للصوت قيمة زمنية لا تقل أهمية في تمييزه عن غيره أيضاً، تظهر آثارها في سمع المتلقي مروراً بمراكز الوعي الداخلي لديه ـــ سمعاً وأداءً ـــ أيضاً، فضلاً عن آثار

ذلك في الدلالة على المعنى والإيحاء به كما قدمنا، فضلاً عن دراسة آليات في النطق وقواعد في التلاوة تكفل سلامة الصوت ـــ هوية وزمناً ـــ وتعمل على تسهيل توالي هذه الأصوات من خلال ضوابط ومعايير مختلفة ، وللصوت من حيث القيمة الزمنية عناصر أهمها: حروف المد واللين والغنة (نوناً وميماً) من حيث إنَّ النون والميم تشارك في تشكيل تلك الأصوات على مدى زمني محدد. فإذا أضفنا إلى ذلك آليات المد والقصر والوقف والسكت والروم واختلاس الحركة والشدة ونحو ذلك، يظهر لنا سعة الوسط الصوتي وتنوعه وصيغ تشكيله، والقيمة الزمنية للصوت تقتضي تحديد الوحدة القياسية فيه إذ على ضوء ذلك تتحدد صيغ زمنية مختلفة ومتعددة ترسم مجال الحركة والحرف والمد الواجب وغيرها.

وإذا اعتبرنا الحركة وحدة الصوت القياسية الأساسية كان الحرف في المد الطبيعي الذي يشمل حروف المد واللين في حالاتها الأصلية الطبيعية يشكل وحدتين زمنيتين، فإذا انتقلنا إلى المد الواجب فقد يصل مقداره إلى ست وحدات أو أربع، وهكذا تحصل على مدرج صوتي زمني يتراوح بين المد الواجب الذي يستغرق ست حركات في مثل قوله تعالى:((أتحآجوني في الله وقد هدان))(سورة الأنعام: ٨٠)،إلى أن يتناقص فيبلغ حركة تشبه حركة القاف في كلمة (قُل)،وقد يتناقص الصوت أحياناً ليصبح جزءاً من الحركة نفسها في حالة الروم، بل قد يتناقص الصوت إلى حد الاستغناء عنه بتمامه ، من مثل حذف الياء في المنادى المضاف إلى ياء المتكلم من نحو قوله تعالى:((ربِّ ارجعون))(سورة المؤمنون: ٩٩)،وقوله تعالى:((يا قوم اعبدوا الله))(سورة الأعراف: ٦٥). وإذا كان الذي قدمنا يكشف عن آليات وضوابط ومعايير مختلفة في ضبط الصوت في السياق القرآني مِمَّا تضمنته علوم التلاوة والقراءات فإنَّ ما يهتم به البحث هنا أن يتلمس آثار هذه التقنيات الصوتية في تحقيق الأثر الجمالي للصوت في النفس والدلالة على المعنى إشارة أو إيحاء والمشاركة في تسهيل سيولة اللفظ وانسياب الصوت دون تعقيد أو اضطراب.

وفي الملاحظات الآتية ما يكشف عن هذه الآثار في النسق الصوتي القرآني(١٤):

أ . فالأثر الجمالي في النفس جرّاء الاستماع إلى تلاوة القرآن يكشف عنه حديث أبي موسى الأشعري عندما سمعه النبي(ﷺ)يقرأ فقال له:((لقد أعطيت مزماراً من مزامير آل داود))(١٥)،شبه حسن صوته وحلاوة نغمته بصوت المزمار ، ثم قال أبو موسى:((لو علمت أنَّك تسمع لقراءتي لحبرتها لك تحبيراً))، يريد تحسين الصوت(١٦)، وقد روي عن عمر بن عبد العزيز أنَّه كان حسن الصوت فخرج ليلة يصلي في المسجد فجهر بصوته فاجتمع الناس ، فأرسل إليه سعيد بن المسيب:((فتنت الناس))،فلم يعد لذلك(١٧)،والحق تبارك وتعالى يقول عن الأثر القرآني حين يتنزل على جبل((لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله))(سورة الحشر: ٢١)،ومن أجل هذا الأثر الصوتي الخطير في الإنسان حين سماعه لكلام الخالق تبارك وتعالى، قال الله عز وجل((وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون))(سورة الأعراف: ٢٠٤).

ب . والمد الطبيعي الذي لا يجاوز وحدتين قياسيتين بحيث يعطي صوت حرف المد واللين زمنه القياسي يكاد يشكل أكثر حالات المدود استعمالاً في التركيب اللغوي عموماً من نحو قوله تعالى((ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا))(سورة النصر: ٢)، وذلك يعطي الصوت واللفظ والنسق سيولة وسهولة في النطق والانتقال من صوت لآخر .

ج . وأحياناً تكثر المدود و الشدات والغنات فتأتي بقيم زمنية متطاولة تعبر عن الموقف النفسي الذي يكشف الخطاب القرآني عنه من نحو ما يأتي:

١. في قوله تعالى:((قال أتحآجوني في الله وقد هدان))(سورة الأنعام: ٨٠)، فقد استغرق المد ست حركات، وهذا التطاول في الصوت يشير إلى المدى الزمني الذي استغرقه محاجة ولجاج المشركين لرسول الله(ﷺ)، بشأن الألوهية والوحدانية .

٢. تطاول صيغ الدعاء في القرآن الكريم، لما يأتي:

أ. تلبية لمشاعر الخشية والخشوع والتضرع في نحو قوله تعالى((قال ربِّ إنِّي وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا))(سورة مريم: ٤)، إلى قوله تعالى((واجعله ربِّ رضيا))(سورة مريم: ٦)،حيث تساهم الغنة والشدات على الياء وغيرها، والألف الساكنة بعدها همزة في إطالة مد الصوت بالحرف المقروء.

ب. تعبيراً عن الاستغاثة من العذاب وشدة الألم يوم القيامة((وقالوا ربنا إنَّا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلولنا السبيل، ربنا آتهم ضعفين من العذاب وألعنهم لعنا كبيرا))(سورة الأحزاب: ٦٧ – ٦٨) .

ج. الثناء على الله تعالى فيتطاول لحن الأداء، يتمتع به التالي والسامع في نحو قوله تعالى:((قال اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير، تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب))(سورة آل عمران: ٢٦ – ٢٧) .

د . وصفاً ممتعاً لما يلقاه الهانئون في نعيم الجنة إذ يسترخي الأداء من خلال الممدود والغنات والتنوين في نحو قوله تعالى:((والسابقون السابقون، أولئك المقربون، في جنات النعيم، ثلة من الأولين، وقليل من الآخرين، على سرر موضونة، متكئين عليها متقابلين))(سورة الواقعة: ١٠ - ١٦) إلى نهاية المشهد في قوله تعالى:((إلَّا قيلا سلاما سلاما))(سورة الواقعة: ١٠ –٢٦).

٣. موقف إرشاد وتوجيه يسترخي ويطول لتأخذ القلوب والمشاعر حظها من استيعاب التوجيه فتتجاوب معه من نحو قوله تعالى :يا أيها الذين امنوا...."هي كثيرة الورود في القرآن الكريم.

٤. موقف تفصيل في الأحكام وتحديد الحقوق فإنَّ التعبير يتهادى وتكثر المدود والشدات ليتحقق استيعاب الحكم الشرعي والاستجابة له ,وتكاد السور الطوال تكون من هذا النوع كثرة مدود وغنات وتنوين.

٥.وقد يكون القصر واختصار المدود هو الظاهرة التعبيرية المناسبة إذا تلاحقت الأحداث وتغيرت المواقف من نحو قوله تعالى:((ثم نظر، ثم عبس وبسر، ثم أدبر واستكبر، فقال إن هذا إلَّا سحر يؤثر، إن هذا إلَّا قول البشر، سأصليه سقر، وما أدراك ما سقر، لا تبقي ولا تذر، لواحة للبشر، عليها تسعة عشر))(سورة المدثر: ٢١ - ٣٠ . ومنة قوله تعالى: ((إذا السماء انشقت، وأذنت لربها وحقت، وإذا الأرض مدت، وألقت ما فيها وتخلت، وأذنت لربها وحقت))(سورة الانشقاق: ١ - ٥) ، فقد توالت الحروف على قيمة زمنية طبيعية أحياناً واختصرت إلى حركة من مثل "إذا السماء....إذا الأرض"، بينما جاء مد(السماء)منسجماً في الطول مع بُعد السماء وخطورة الموقف المتغير، والشدة هنا تعطي وقعا يشارك في إظهار ما في الموقف من قلق واضطراب.

د . والحركة ــ إعرابية وصرفية ـــ على صغرها وسذاجة شكلها تترك في الأذان أصواتاً مميزة كأنما هي ترجيعات أصوات في نسق دقيق تمثل أصوات الماء الجاري في جداول وسواق لا يعوقه شيء ,وأعذب بصوت الماء الجاري في أذن من يصغي إليه فكيف به أصواتاً متنوعة تكاد لا تحصر[١٨]. ويأتي الروم إحدى صيغ التعبير الدقيقة المرهفة عن القيمة الإعرابية، والروم

:هو جزء من حركة يستخدم تدليلاً على الحركة التي عفا عليها الوقف الطارئ بإبقاء شيء منها، وهذا غاية في توضيح المعنى بدلالة الحركة عليه, والثقات من القراء يرون الروم أرفع وجه وأجوده لأنَّ إبقاء شيء من الحركة دليل على مستوى من الإحساس باللغة والعناية بأدائها في أضيق حال للنطق بالصوت اللغوي وهي حال الوقف ،كما أنَّها تفرق بين ما يتحرك في الوصل وبين ما هو ساكن في الوصل والوقف, وليعرف السامع أنَّ القارئ لم يخطئ إعراب الكلمة[١٩].

ه . وهناك حروف يتنوع أثرها الصوتي وفقاً للتركيب : فالهمزة ذات قيم صوتية متعددة، ولها خصائص تعددت إزائها اختيارات القراء لقراءتها بسبب من ذلك تحقيقاً وتخفيفاً وحذفاً، وهذا التنوع يورث في السمع عدة إيقاعات بدءا من أصلها وهو محقق من نحو((إياك نعبد وإياك نستعين))(سورة الفاتحة: ٥) ، وانتهاء به وهو مبدل من صوت الحركة قبلها واواً كانت أو ياء من نحو وصل ضمة نون(نستعين) بهاء(أهدنا) في قوله تعالى: "....نستعينُ أهدنا" وذلك كله يرد في إطار من التناسب بين الأصوات والألفاظ مما يعطي السياق القرآني سهولةً وجمالاً[٢٠].

و . وقد يستغني عن الصوت بتمامه كما قدمنا إذا كان يتسبب في إرباك الصيغة واضطراب التركيب ولا يعني ذلك سوى طلب الانسجام في نسق اللفظ والنطق[٢١]، ومن ذلك :أنَّ كل منادى أضيف الى ياء المتكلم سقطت الياء منه من نحو(رَبِّ...) في القرآن الكريم ، والغاية من الحذف تحقيق توقيع في نسق الحركات اتقاء للتنافر وطلباً للتناسب وإيضاحاً لما يمكن أن يخفى[٢٢].

ز. وقد تحمل اختيارات القراء ظواهر صوتية ذات أثر في السمع والدلالة فقوله تعالى:((يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلَّا أنفسهم وما يشعرون))(سورة البقرة: ٩) ،جاءت (وما يخدعون)في قراءة حفص عن عاصم ،(وما يُخَادِعُون)في قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو[٢٣]، وجاء اختيار (وما يخدعون)بحجة أنَّ فاعَل وفَعَل بمعنى واحد ،وأنَّ الخداع لم يكن من اثنين كما توحي صيغة فاعل، وفي ذلك تنزيه للرسول الكريم عن إتيان فعل الخداع وأنه لم يكن إلَّا من المنافقين كما ورد في قوله تعالى: "وإن يريدوا أن يخدعوك" بينما اختيار(وما يخدعون) بحجة حمل الثاني على الأول، والمسموع من نطق اللفظين مختلفين يوحي بفرق في الدلالة بين الصيغتين والمسموع من نطقهما متفقين يوحي تأكيد المعنى وعودته على المخادعين أنفسهم[٢٤].

ح. وقد يعدل النسق القرآني بالكلمة من صيغتها المألوفة إلى صيغة أُخرى ليتم توظيفها بما يحمل من إمكانات صوتية إيقاعية تثير السمع والمشاعر وتغني العقل والذهن، والقرآن الكريم حوى من ذلك الكثير. فكلمة (طغواها) في قوله تعالى:((كذبت ثمود بطغواها))(سورة الشمس: ١١)، علل القراء ورودها كما هو شأنه في أمثالها بقوله: "أراد بطغواها طغيانها إلَّا أنَّ الطغوى أشكل برؤوس الآيات فأختبر لذلك"[٢٥]، غير أنَّ التدقيق في اللفظ يشير إلى قضية أخرى غير الانسجام مع الفواصل في السورة ؛ لأنَّ مجيء اللفظ في الفاصلة وغيرها لابُدَّ أن تكون له قيمتان على الأقل في السياق القرآني: لفظية ومعنوية، فهما نصفا دائرة يلتقيان معاً ليكونا دائرة واحدة ،فالكلمة هنا اسم ذات، بمعنى الطاغية وردت في سورة الحاقة:((فأمَّا ثمود فأهلكوا بالطاغية)) (سورة الحاقة: ٥) ، أي: العذاب الطاغي والطغوى هنا بدل من الطاغية هناك[٢٦].

وقد وردت طغوى مرة واحدة في القرآن الكريم ليكون المعنى: كذبت ثمود بمجيء العذاب الطاغي رغم تذكير نبيهم لهم وتحذيرهم من هذا العذاب[٢٧]،ويصبح تفسير طغوى بطغيان على أنَّه مصدر على حد قول بعض المفسرين[٢٨]،مرجوحاً بما ذكرناه، لأنَّ مصدر الطغيان يعني تجاوز الحد في الأذى والتكذيب ومثل هذا المعنى وحده لا يمكن تحميله لكلمة(طغواها) فأقتضى تغيير الصيغة للدلالة على المعنى الخاص بها في سياق السورة والآية. وهكذا تظهر لنا ملامح هذا النظام الصوتي

البديع في السياق القرآني، قسمت فيه الحركة والسكون تقسيماً منوعاً يجدد نشاط السامع لسماعه، ووزعت في تضاعيفه حروف المد والغنة توزيعاً بالقسط يساعد على تربيع الصوت المثير كلما قرأت وأعدتَ ترى فيه من النثر جلالـه وروعتـه ومن الشعر جماله ومتعته[٢٩].

المبحث الثاني- عناصر تشكيل النسق الصوتي (الحركة والحرف)

هذه الأدوات هي جزئيات التركيب أو النظم مكونة من وحدات هي (الحركة، الحرف، الكلمة، ثم التركيب بما يحمل من علاقات صوتية متداخلة). وقد لا نجد الحركة أو الحرف كياناً قائماً بذاتـه نمنحـه صفة أداة تحمل النسق الصوتي وحدها ؛ لأنَّه لا تظهر قيمة الحركة أو الحرف أو حتى الكلمة إلَّا من خلال التركيب والنظم، ولكن الإشارة إلى كل من الحركة والحرف والكلمة اقتضاها أمران[٣٠]:

أولاً : رهافة التعبير القرآني وشفافيته من الناحية الصوتية بحيث يساهم صوت الحركة أو الحرف ذكراً وحذفاً في إيقاعية النسق.

ثانياً : دقة التعبير القرآني من حيث مساهمة الحركة أو الحرف في تشكيل القيمة المعنوية للتركيب بما يؤكد وثاقة الصلة في التعبير القرآني بين الصوت أو الحرف المنغوم من جهة، والدلالة المعنوية للتركيب الذي يتحمل الصوت أو الحرف المنغوم من جهة أخرى لاسيَّما والحركات دوال على المعاني. وسنعرض لنماذج تطبيقية من القرآن الكريم تظهر فيها أهمية هذه الأدوات في تشكيل النسق الصوتي في القرآن الكريم: ذكراً وحذفاً ، وإبدالاً، وإدغاماً، إعراباً وصرفاً، تكراراً وتنوعاً، رسماً وصوتاً إلى غير ذلك.

أولاً: الحركة:

في قوله تعالى: ((ومَن أوفى بما عاهد الله عليهُ الله فسيؤتيه أجرا عظيما))(سورة الفتح: ١٠)، وردت هاء الضمير في(عليهُ) مضمومة في قراءة حفص ولغة أهل الحجاز – وكأن حقها أن تكسر- إذ المشهور في نحو هذا هو كسر الهاء، كما في قوله تعالى((وما أسألكم عليه من أجر))(سورة الشعراء: ١٠٩) ،وأمثاله، وهذا العدول إلى الضم الذي هو أثقل الحركات في الاعتبار الصرفي في اللغة[٣١] يشير إلى مشاركة الأداء الصوتي – بالضمة في(عليهُ)-جو حرمة العهد وضخامة الالتزام ، فهو بيعة على الموت يوم الحديبية[٣٢]، فأعطت هذه الضمة الفرصة لتضخيم لفظ الجلالة بعد(عليه الله)فناسب تضخيم لفظ الجلالة ضخامة وفخامة موقف العهد والالتزام مع الله تعالى[٣٣]. وقد تأتي الحركة بأثرها الإعرابي لتكشف أزمة صارت إليها اللغة العربية على ألسنة المولَّدين والمستعربين حين يقرأ أحدهم الآية((إنَّ الله بريء من المشركين ورسولُه)) (سورة التوبة: ٣) ،بكسر لام رسوله ليقوم أبو الأسود الدؤلي –بعد أن سمع هذا الرجل وغيره يلحن في كتاب الله- بتحقيق إنجاز عظيم في وضع علم النحو ورسم الحركات[٣٤]، حيث اكتسبت القيمة الصوتية للحركة قيمة كتابية أزالت برسمها الالتباس ووضعت عدد من الضوابط الإعرابية- وهي ضوابط صوتية في أساسها-على محجة واضحة بالنسبة للأجيال الجديدة آنذاك ومن بعدها[٣٥]. وفضلاً عن الأثر الإعرابي للحركة فإنَّ لها أثراً صرفياً داخل بنية الكلمة تجعل منه قيمة صوتية فضلاً عن القيمة المعنوية، يتضح ذلك في مثل قوله تعالى:((قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق، قل الله يهدي للحق، أفمن يهدي إلى الحق أحقُّ أن يتبع أمَّن لا يهدِّي إلَّا أن يُهدى فما لكم كيف تحكمون))(سورة يونس: ٣٥)، ففي قراءة حفص عن عاصم[٣٦]حيث كسرت هاء(يهدي) وأبدلت تاء الافتعال دالاً وأدغمت في الدال الثانية فساهمت كسرة الهاء وشدة الدال في الوصول بالصيغة الجديدة إلى حالة فقدت فيها معظم دلالة الصيغة السابقة (يهدي) لتدلَّ على أنَّ هذا الذي لا يهتدي لم يعد يملك من ملكات القدرة على الهداية شيئاً مما كانت تحمله صيغة الافتعال السابقة (يهتدي) فناسب حاله حال الفعل الجديد وقد سلب كل قدره، إذ كاد ينتهي من الهداية إلى الإنهداد والتردي التي توحيها صيغة الفعل الأخير(يهِدّي)فكان إدغام تاء الافتعال للإيماء إلى انتفاء جميع أسباب

الهداية حتى أدانيها ، والتاء عند أرباب القلوب معناها انتهاء التسبب إلى أدناه[٣٧]وتطبيقاً على هذا الرأي فإنَّ غياب التاء داخل صيغة(يهدّي) أفقد الفعل كثيراً من دلالته الأولى صوتاً ومعنى، ولحرف التاء في اللغة العربية مهمات تطبيقية صوتية ومعنوية يعد ما أشرنا إليه واحداً من هذه المهمات[٣٨].

وظهور حركة الفتحة على ياء ضمير المتكلم في أخر الكلمة أحياناً تمكين لهذا الحرف من الظهور وبدونها يختفي جزء كبير من صوت الياء أو حتى رسمه أحياناً، ولهذا الظهور أسرار صوتية ودلالة معنوية لا تخفى. من ذلك قوله تعالى:((سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الغي لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين))(سورة الأعراف: ١٤٦)، فقد حركت ياء الضمير في(آياتي)على قراءة حفص عن عاصم وغيرهما ماعدا حمزة وابن عامر[٣٩]، فقد حركت الياء تعظيماً لشأن تلك الآيات عند إضافتها لله تعالى ،وكان إظهار الفتحة على الياء سبباً في إظهار صوت الياء ليتحقق منه هذا التعظيم ، وحذف الفتحة يدع الياء ساكنة ، وهذا سيكون سبباً في اختصار صوتها والتباس فهم المعنى عند وصلها بكلمة (الذين)بعدها[٤٠]. بينما يوحي حذف الياء واختصار الصوت إلى زمن الحركة في أمكنة أخرى أسراراً رائعة من جماليات الأداء والتعبير لا يقل عن جمالياتِ ذكرها. فالنداء بكلمة (ربِّ) اقتضى حذف ياء المتكلم والاكتفاء بحركة الكسرة على الياء، فضلاً عن حذف (يا) النداء قبل كلمة (رب) إنَّما هو إيحاء بقرب المنادى معنوياً، وتعبير عن شدة الأنس بهذا القرب صوتاً ومعنى ، مثل ما ورد في قوله تعالى على لسان زكريا عليه السلام:((قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا))(سورة مريم: ٤)، وفي أمثالها آيات كثيرة .

وحيث إنَّ الضمة أثقل من الفتحة كما قدمنا، وتعبر عن معاناة أشد فقد جاءت صيغتا (كُرْه وكَرْه) لتعبر الأولى عن شدة المعاناة الداخلية ، بينما تعبر الثانية عن حالة القهر التي تمارس من الخارج وذلك من خلال استقراء المادة في الاستعمال القرآني، ومثاله قوله تعالى:((أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون))(سورة آل عمران: ٨٣)، وقوله تعالى:((قل أنفقوا طوعا أوكرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوما فاسقين))(سورة التوبة: ٥٣)، وقوله تعالى:((يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها))(سورة النساء: ١٩). ومثال المعاناة الداخلية القاسية على النفس قوله تعالى:((كتب عليكم القتال وهو كره لكم)) (سورة البقرة: ٢١٦)، وقوله تعالى:((ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها))(سورة الأحقاف: ١٥)، فناسب شدة المعاناة الداخلية أن تأتي الضمة التي هي أشد الحركات لتدل عليها[٤١] . وحيث إنَّ السكون أخف من الشدة فقد جاءت صيغتا (مَيْت) و(مَيِّتْ) لتدل الأولى على الموت الحقيقي الذي سبقته الحياة أو ما ليس فيه حياة أصلاً، كما في قوله تعالى:((أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه)) (سورة الحجرات:١٢)،بينما وردت صيغة(مَيِّت)لمن سيموت وليس لمن مات فعلاً كما في قوله تعالى لرسوله: ((إنَّك ميت وإنهم ميتون))(سورة الزمر: ٣٠)، وقوله تعالى:((يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي)) (سورة الروم: ١٩)،وقوله تعالى:((ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت))(سورة إبراهيم: ١٧)، فكأنَّ الشدة في (مَيِّت) تشير إلى فضلة حياة باقية في المخلوق، بينما اختفاء الشدة وبقاء السكون في(مَيْت)إشارة إلى سكون الموت الحقيقي في المخلوق[٤٢].

ثانياً: الحرف:

أمّا الحرف فلا تقل أسراره الجمالية الصوتية والمعنوية ذكراً وحذفاً عمّا سبق ، ففي قوله تعالى((يا بنيَّ أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إنَّ ذلك من عزم الأمور)) (سورة لقمان: ١٧)، وفي قوله تعالى((ولمن صبر وغفر إنَّ ذلك من عزم الأمور))(سورة الشورى: ٤٣)، ولمعرفة الأثر الصوتي والمعنوي الذي أضافته اللام في (لمن عزم الأمور) في آية الشورى نتتبع سياق النص الذي ورد في الآيتين ليتضح ما يأتي: أنَّ حجم الابتلاء والاحتمال في آيات الشورى أكبر وأضخم منها في آيات سورة لقمان ؛ لأنَّ الصبر فيها يقتضي المغفرة أيضاً ، والابتلاء في

آية لقمان مصدره التكليف من الذات الإلهية التي تشاء ابتلاء المخلوق (أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر) وما يقع عليه من الأذى بسبب ذلك مطلوب احتماله بالصبر عليه.

أمّا الابتلاء في آية الشورى فإنَّ الأذى صادر من المخلوق ابتداءً ـــ حين يظلم ويبغي بغير الحق ـــ يقع على المخلوق المظلوم ويطلب منه أن يصبر ثم يغفر، وفي ذلك من شدة المعاناة ما اقتضى من التعبير القرآني زيادة اللام هنا وعدم ذكرها هناك[٤٣] . وبين ذكر التاء في (استطاعوا) وحذفها من (اسطاعوا) في قوله تعالى((فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا))(سورة الكهف: ٩٧). فحين حذفت تاء الافتعال جاءت السين والطاء متواليتين بلفظ سلس سهل خاطف يشبه انزلاقاً سهلاً خاطفاً سريعاً من على ظهر السُّور الأملس الذي صنعه ذو القرنين فعجز القوم بعد صهره وتجمده أن يرقوا إلى ظهره ، وكلما حاولوا أن يعلوا ظهره (يظهروه) انزلقوا بسرعة وملوسة عنه، فالنعومة والملوسة وخفة الحركة في (اسطاعوا) يقابلها سهولة وانزلاق وخفة حركة تظهر فشل محاولة اعتلائه رغم تكرارها دون جدوى.

بينما نجد في كلمة (استطاعوا) تدرجاً أكثر في توالي الصوت (سين ، تاء ، طاء)، يوحي بطول أمد محاولات السعي لإحداث نقب في هذا السد دون جدوى أيضاً،((ولاشكَّ أنَّ محاولة الظهور عليه أيسر من النقب، والنقب أشق عليهم، وأثقل فجيء بالفعل خفيفاً مع الأخف، وجيء به تاماً مستوفي مع الأثقل، فتناسب، ولو قدر بالعكس لما تناسب))[٤٤]،((وقد اختار التخفيف في الأول؛ لأنَّ مفعوله حرف وفعل وفاعل ومفعول فاختبر فيه الحرف ، والثاني مفعوله اسم واحد وهو قوله (نقبا)))[٤٥]. وفي كلمة (أجاءها) في قوله تعالى((فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة))(سورة مريم: ٢٣)، معنًى يختلف عن معنى (جاءها). وأداء صوتي يختلف أيضاً، وهذه الصيغة لم تستخدم في القرآن الكريم إلَّا مرة واحدة ، بينما استخدمت كلمة (جاء) ومشتقاتها أكثر من مائتين وسبعين مرة[٤٦].

والصيغة الجديدة النادرة جعلت صاحبة المخاض موضع وقوع الفعل مفعولاً مقدماً، كما جعلت المخاض شيئاً مؤثراً اقتضى أن يأخذ صيغة الفاعل المؤخر، ليصبح المعنى بالدلالة الجديدة بعيداً عن معنى جاء وقريباً جداً من (جاء بها) ففي هذا الفعل تصوير دقيق لحالة مريم عليها السلام ، فقد استولى عليها المخاض الغريب العجيب فجاء بها دون إرادة منها أو اختيار لتكون الحالة كلها قدراً مفروضاً يقابله استسلام مطلق يعبر لفظ(أجاءها)عنه أصدق تعبير، وقد يكون أجاءها بمعنى ألجأها على ما ورد في الكشاف[٤٧].

ومن صيغ الحذف للحرف(صوتاً ورسماً) حذف واو العلة من كلمة((سندع الزبانية))(سورة العلق: ١٨)، صوتاً ورسماً من المصاحف العثمانية، وقد أفاد البقاعي في نظم الدرر عن ذلك بقوله ((وقد اجتمعت المصاحف العثمانية على حذف الواو من هذا الفعل خطأ، ولا موجب لحذفه من العربية لفظاً، وكأنَّ المعنى في ذلك ــ والله أعلم ـــ ألا يظُن أنَّهم دعوا لرفعة لهم في ذواتهم يستعان بها بسببها؛ لأنَّ معنى الواو عند الربانيين العلو والرفعة إشارة إلى أنَّهم لا قوة لهم إلّا بالقوي العزيز، أو يقال إنَّ الحذف دال على تشبيه الفعل بالأمر ليدل على أنَّ هذا الدعاء أمر لا بدَّ من إيقاع مضمونه زمن إجابة المدعوين إلى ما دعوا إليه، وأنَّ ذلك كله يكون على غاية الإحكام والاتساق بين خطه ومعناه والانتظام، لاسيّما مع التأكيد بالسين الدال على تحتم الاتحاد والتمكين، أو يكون المعنى: إنّا ندعوهم بأيسر دعاء وأسهل أمر فيكون منها ما لا يطاق ولا يستطاع دفاعه بوجهه، فكيف لو أكدنا دعوتهم وقوينا عزيمتهم))[٤٨].

وهنا لا بُدَّ لنا من التساؤل : إذا كان حذف الواو من(سندعُ) في المصاحف العثمانية خطأً فلماذا ذهب البقاعي يبحث عن الأسباب والتعليلات لحذفه؟ ويظهر لنا في تعليل حذف الواو هذه توجه آخر يتضمن قيمة تعبيرية لا يخلو التبصير فيها من فائدة وحكمة.

فعلى الرغم من أنَّ سبب الحذف لفظاً وفقاً لعلم القراءات يعود لالتقاء الساكنين على الواو آخر كلمة (سندعُ) وحرف الزاي لفظاً في أول كلمة (الزبانية) ، إلّا أنَّ الأمر أعمق من ذلك في تقويم هذه الظاهرة وتعليلها ، ذلك أنَّ صوت الضمة المتبقية على العين اختصاراً لحرف الواو المحذوف تفيد سرعة الأمر الإلهي الموجه للملائكة لتتصدى لنادي قريش الذي يتباهى صاحبه به وبقوة جمعه، يتبعه سرعة حضور الزبانية المستدعاة تنفيذاً للبرقية العاجلة المختصرة ، فناسب اختصار الصوت والتدليل عليه بحذف الواو رسماً سرعة استجابة المأمورين للأمر الإلهي في ساحة الصدام ، بين نادٍ وجمع مشرك ، وبين ملائكة ــ زبانية ـــ موكلة بالعذاب والتنكيل[٤٩]،قال تعالى((كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية، ناصية كاذبة خاطئة، سندع الزبانية))(سورة العلق: ١٥ – ١٨).

وفي قوله تعالى (ويمح الله الباطل))(سورة الشورى: ٢٤) ، حذفت الواو لفظاً ورسماً ، ويعلق الأستاذ محيي الدين الدرويش على ذلك بقوله : ((فهو كلام مستأنف غير داخل في جزاء الشرط الذي ذكرته الآية في أولها((أم يقولن افترى الله كذبا فإن يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور))(سورة الشورى: ٢٤) ؛ لأنَّه تعالى يمحو الباطل مطلقاً، وقد سقطت الواو لفظاً لالتقاء الساكنين، وأسقطت في بعض المصاحف خطأً حملاً على اللفظ))[٥٠]،بينما يقف البقاعي معللاً لهذا الحذف بما يأتي:((وحذفت واوه في الخط في جميع المصاحف مع أنَّه استئناف غير داخل في الجواب لأنَّه تعالى يمحو الباطل مطلقاً ، إيماءً إلى أنَّه سبحانه يمحق رفعه وعلوه وغلبته التي دلت عليها الواو مطابقةً بين خطه ولفظه ومعناه: تأكيداً للبشارة يمحوه محواً لا يدع له عيناً ولا أثراً ... وفي الحذف أيضاً تشبيه له بفعل الأمر إيماءً إلى أنَّ إيقاع هذا المحو أمر لا بدَّ من كونه على أتم الوجوه وأحكمها وأعلاها وأتقنها كما يكون المأمور به من الملك المطاع))[٥١]،واللافت للنظر أنَّ البقاعي هنا يعلل الحذف للمطابقة بين الخط واللفظ والمعنى ، ولا يأخذ بهذا الرأي في قوله تعالى((سندع الزبانية))،الذي سبق الحديث عنه ، ثم يقدم قاعدة معتمدة لدى أهل القراءات يحددها بقوله:((والوقف على هذا وأمثاله بغير واو لجميع القراء موافقة للرسم لأنَّ القاعدة أنَّ ما كان فيها رواية اتبعت وإن خالفت الرسم أو الأصل، وما لم يرد فيه عن أحد منهم رواية اتبع فيه الرسم، وإن خولفت الأصل؛ لأنَّ التخفيف معهود في كلام العرب، كالوال والمتعال، من أسمائه الحسنى))[٥٢].

وفي قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام جواباً لفتاه عند إخباره بما فعل الحوت عند الصخرة:((قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلَّا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا، قال ذلك ما كنا نبغي فارتدا على آثارهما قصصا))(سورة الكهف: ٦٣ – ٦٤).وفي تعليل حذف ياء(نبغِ) يقول الدكتور فاضل صالح السامرائي:((نسيان الحوت ليس ما يبغيه موسى على وجه الحقيقة، وإنَّما يبغي الشخص الذي يريد موسى أن يتعلم منه، فحذف الياء كان إشارة إلى عدم إرادة هذا الحدث على وجه التمام، وإنَّما هو علامة على الموضع الذي يجدون فيه بغيتهم))[٥٣]. بينما وردت الكلمة (نبغي) في قوله تعالى على لسان أولاد يعقوب:((ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير)) (سورة يوسف: ٦٥)، فإنَّ ذكر الياء هنا جاء موازياً لوجدان البضاعة في رحالهم من جهة، وتعبيراً عن مدى الارتياح والاطمئنان النفسي بوجود البضاعة مِمّا دفعهم إلى الإطالة في لفظ (نبغي) لتقرأ على اللفظ الأصلي الصحيح وليأتي معبراً عن هذا الارتياح والاطمئنان من جهة أخرى.

المبحث الثالث- الخصائص الصوتية للمفردة القرآنية

الكلمة تجمع الحركة والحرف اللذين سبق الحديث عنهما من حيث الأثر الصوتي، ولكنها توظفهما داخلها بترتيب خاص ونسق خاص حسبما يقتضيه أمر البنية والتركيب والدلالة والخطاب ، فيصبح للكلمة بذلك أثر خاص يتعدى الحركة والحرف إلى المشاركة في بناء القيم التعبيرية والصوتية للنص كله، إذ الكلمة في النص جزء أو وحدة أساسية من وحدات التعبير الذي يجمع بين دلالة الصوت ودلالة المعنى عبر النظم أو النسق العام . وتوظيف المفردة في خدمة النسق الصوتي في القرآن الكريم يظهر في ظواهر متعددة ، أهمها :

أولاً: انسجام الصوت مع المعنى:

وذلك في مفردات ذات أثر صوتي أو حركي أو نفسي فكلمة (كبكبوا) في قوله تعالى:((فكبكبوا فيها هم والغاوون))(سورة الشعراء: ٩٤) ، يمثل تكرار الحرف تكرار المعنى، كأنَّه إذا أُلقي في جهنم ينكب كبة مرة بعد أخرى هو وأمثاله حتى يستقروا في قعرها[٥٤]،ويشبه ذلك ما أشار إليه الخليل في قول العرب:((صَرَّ الجندب، وصرصر البازي))،كأنَّهم توهموا في صوت الجندب استطالة فقالوا:((صَرَّ صريراً)) فمدوا، وتوهموا في صوت البازي تقطيعاً، فقالوا:((صَرْصَرَ))،فجاءت كلمة(كبكبوا)يُحْدِثُ جرسها صوت الحركة التي تتم بها[٥٥]. وكلمة فاعتلوه في قوله تعالى:((خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم))(سورة الدخان: ٤٧)،((فالعتل جرس في الأذن ، وظل في الخيال يؤديان المدلول للحس والوجدان))[٥٦]. وكلمة (اثاقلتم) في قوله تعالى:((يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله أثاقلتم إلى الأرض))(سورة التوبة: ٣٨)، يتصور الخيال ذلك الجسم المتثاقل يرفعه الرافعون في جهد فيسقط من أيديهم في ثقل، إنَّ في هذه الكلمة(طناً)على الأقل من الأثقال!!، ولو أنَّك قلت: تثاقلتم لخف الجرس ولضاع الأثر المنشود، ولتوارت الصورة المطلوبة التي رسمها هذا اللفظ واستقل برسمها، إنَّ تشديد حرف الثاء ساهم بشكل أساس في رسم حركة الصوت لتصوير الدلالة المعنوية في الكلمة فإذا أضفنا إلى ذلك ألف المد وحرف القاف واللام الساكنة والتاء والميم نجد أنَّ كل حرف بحركته وسكونه أدّى جزءاً آخر من الأداء الصوتي لتصوير الحالة المشاهدة، فالألف زادت من مدة الثقل ووزنه، والقاف مثّل صوت ارتطام الثقل حين هبط إلى الأسفل، واللام الساكنة تمثل لحظة استقرار لهذا الجسم الثقيل، ليأتي صوت التاء وهو أقلُّ زخماً من صوت القاف ليشير إلى استناد هذا الجسم الثقيل على جزء من الأرض ثم تأتي الميم لتختم مشهد الحركة بحالة ثبات واستقرار تنضم فيها الشفتان ويغلق الحدث والمشهد معاً[٥٧]. ثم إنَّ المقابلة في الآية الكريمة بين كلمتي (انفروا) و(اثاقلتم)، تكشف تباين الأداء الصوتي لكل من الكلمتين وفق دلالتهما المعنوية (فانفروا) مجموعة أصوات ذات إثارة وحركة رشيقة تمثلها حروف الفاء والراء والواو، وهكذا تبدوا جمالية الأداء الصوتي وفقاً للدلالة المعنوية في كل من الكلمتين بما يضفي جوّاً من الروعة والإبداع في التناسق الصوتي لهذا الكتاب الكريم[٥٨].

ثانياً : استخدام صيغ من المفردات وتجاوز أخرى:

استخدم القرآن الكريم ألفاظاً على صيغ معينة وتجاوز الصيغ الأخرى لها لعدم كفاءتها في تحقيق الانسجام الصوتي أو لأسباب أخرى، فبعضها لم يأت به إلَّا مجموعاً ولم يستعمل منه صيغة المفرد، فإذا احتاج للمفرد منها استعمل صيغة أخرى، وبعضها لم يرد إلّا مفرداً فإذا احتاج للجمع استخدم صيغة أخرى بديلة. فلفظة (اللب) لم ترد إلّا مجموعة في القرآن الكريم في مثل قوله تعالى:((إنَّ في ذلك لذكرى لأولي الألباب))(سورة الزمر: ٢١)، وقوله تعالى:((وليذكر أولوا الألباب))(سورة إبراهيم: ٥٢)، ونحوهما. وذلك لأنَّ لفظ الباء شديد مجتمع ولا يفضي إلى هذه الشدة إلّا من اللام الشديدة المسترخية، فلمَّا لم يكن ثمَّ فصل بين الحرفين يتهيأ معه هذا الانتقال على نسبة بين الرخاوة والشدة تحسن اللفظة مهما كانت حركة الإعراب فيها : نصباً أو رفعاً أو جرّاً ، فأسقطها القرآن من نظمه على سعة ما بين أوله وآخره، ولو حسنت على وجه من تلك الوجوه لجاء بها حسنة رائعة ، على أنَّ فيه لفظ (الجُبّ) في وزنها ونطقها لو لا حسن الائتلاف بين الجيم والباء من هذه الشدة في الجيم المضمومة[٥٩].

ثالثاً : استخدام ألفاظ كثيرة الحروف :

استخدم القرآن الكريم ألفاظاً هي أطول الكلام عدد حروفٍ ومقاطع مِمَّا يكون مستقلاً بطبيعة وضعه أو تركيبه، ولكنها بتلك الطريقة المستخدمة في القرآن قد خرجت في نظمه مخرجاً سرياً فكانت من أحضر الألفاظ حلاوة وأعذبها منطقاً وأخفها تركيباً بما هيأ لها من أسباب عجيبة في تكرار الحروف وتنوع الحركات ، فلم تجر في نظمه إلّا بعد أن سرى الماء الحياة فيها . ومن مثل ذلك قوله تعالى:((ليستخلفنهم في الأرض))(سورة النور: ٥٥) ، و((فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم))(سورة

البقرة: ١٣٧)،((أنلزمكموها وأنتم لها كارهون))(سورة هود: ٢٨) . والملاحظ أنَّ هذه الكلمات وأمثالها من الألفاظ المركبة ترجع عند تجريدها من المزيدات إلى الأصول الثلاثية أو الرباعية ، أمّا أن تكون اللفظة خماسية الأصول فهذا لم يرد في القرآن شيء منه ؛ لأنَّه مِمَّا لا وجه للعذوبة فيه إلّا ما كان من اسم عُرِّبَ كإبراهيم وإسماعيل وطالوت وجالوت ونحوها ، ولا يجيء به مع ذلك إلَّا أن يتخلله المد كما ترى فتخرج الكلمة وكأنّها كلمتان[٦٠] .

رابعاً : حروف الزيادة في المفردات :

وهي تكشف عن تنوع في طرق صياغتها واستعمالها من مثل كلمات: بأس، بأساء، نجزي، نجازي، يئس، استيأس، أمن، أمنة، مدّ، أمدّ. فكلمة (البأس) و(البأساء) في كل منهما دلالة خاصة تطبيقاً لقاعدة((إنَّ صيغة الكلمة أو وزنها عنصر من العناصر الأساسية التي تحدد معناها))[٦١]،ويدل تتبع استعمال الكلمتين في القرآن الكريم أنَّ الثانية أشد وأصعب من الأولى، فقد رافقتها كلمة الضراء معطوفة عليها في جميع استعمالاتها وهي على وزانها، بينما كلمة (البأس) لم يرافقها شيء من وصف أو عطف يزيد في درجة شدتها، فالبأس ضرر وشدة أخف من البأساء[٦٢] . وكلمة (نجزي ، نجازي) فكما أنَّ الصيغة فيها زيادة ألف (نجازي) فإنَّ مدلولها يشير إلى زيادة الجزاء فيها عن الجزاء في (يجزي) فضلاً عن ورود كلمة (كفور) بعد نجازي وهي صيغة مبالغة اقتضت صيغة جزاء أشد . وكلمة (يئس، استيأس) تشير صيغة الزيادة (استيأس) إلى معانٍ خارج الأصل الذي جاءت كلمة (يئس) له، فقد وردت كلمة (استيأس) في القرآن الكريم مرتين، قال تعالى:((حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا))(سورة يوسف: ١١٠) ،((فلما استيئسوا منه خلصوا نجيا))(سورة يوسف: ٨٠) ، ففي الآية الأولى يأتي معنى استيأس:((أوشكوا على اليأس))،وفي الثانية:((استحكم اليأس في نفوسهم))[٦٣]. وكلمة (مدَّ) و(أمدَّ) يظهر من خلال تتبع استعمالها في القرآن الكريم ما يأتي: إنَّ كلمة(مدَّ) إذا جاءت حديثاً عن الإنسان اختصت بالمكروه والشر، وإذا جاءت حديثاً عن غير الإنسان كانت للخير والمعروف. قال تعالى((كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا))(سورة مريم: ٧٩)،((وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا))(سورة الرعد: ٣)،أمّا كلمة(أمدّ) فالتتبع لاستعمالاتها في القرآن يفيد أنَّها مقتصرة على الخير ويقتصر استعمالها على الإنسان، ولم يرد منها شيء في مقام المكروه أو الشر[٦٤]،قال تعالى((واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون، أمدكم بأنعام وبنين))(سورة الشعراء: ١٣٢ – ١٣٣)،((قالوا إنا إلى ربنا منقلبون))(سورة الأعراف: ١٢٥).

خامساً : تنوع صيغ المفردات في المشتقات :

إنَّ تنوع صيغ المفردات في المشتقات وتتبع استعمالها يوقفنا على صور من الجمال في الأداء الصوتي وارتباطه بالدلالة المعنوية ويكشف عن دقة استعمال هذه المفردات وتوظيفها في النظم والسياق بحكمة وجدارة . فمثلاً كلمة (آثم وأثيم) و(عجيب وعجاب) وغيرهما، يدل تتبع استعمال كل منهما ما أشرنا إليه ، فالأثيم على وزن فعيل بمعنى (فاعل) فهو آثم ويدل على المبالغة في الاستمرار على اكتساب الإثم، وهو آثم فإذا أكثر من الإثم فهو الأثيم والأثوم[٦٥]، وقد وردت كلمة (آثم) في حقِّ كاتم الشهادة، قال تعالى((ومن يكتمها فإنَّه آثم قلبه))(سورة البقرة: ٢٨٣) ، وقد جاءت كلمة الأثيم في قوله تعالى:((إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما)) (سورة النساء: ١٠٧) ،((والله لا يحب كل كفار أثيم))(سورة البقرة: ٢٧٦)، فالآثم يكون كذلك حين يكتم الشهادة أمّا الأثيم فهو خوّان وكفار ، والملفت للنظر أنَّ وصف (خوّان) كفّار، ألفاظ مبالغة سبقت كلمة أثيم فدلت على عظم الفعل وعظم مسؤولية الفاعل وهو الأثيم، أمّا في (آثم قلبه) فانصرف الوصف للقلب دون مبالغة فالكف عن الفعل أقل خطورة من إتيان الفعل الخطأ، والخوان والمرابي اللذان وردا في آيتي: البقرة ٢٧٦، والنساء ١٠٧، قبل كلمة أثيم يدلان على فعل خاطئ كبير؛ لأنَّ الخيانة والربا من أخطر المحرمات التي يقدم عليها بعض الناس، وغير خاف ذلك التوافق الصوتي بين كلمة أثيم حيث وردت مرفوعة أو منصوبة وفاصلة الآية التي تسبقها أو تلحقها منتهية بالياء والنون أو الياء والميم[٦٦].

وصيغتا (عجيب، عجاب) تؤدي كل منهما دلالة متميزة، ففي قوله تعالى: دلالة متميزة ، ففي قوله تعالى((بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب))(سورة ق: ٢)، وفي قوله تعالى:((قالت يا ويلتي أألد وأنا عجوز وهذا

بعلي شيخا إنَّ هذا لشيء عجيب))(سورة هود: ٧٢)، وفي قوله تعالى((أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب))(سورة ص: ٥) .

يلاحظ التدرج في (العجيب)حسب قوته، فحين كان العجب مجيء النبي (جاءهم منذر منهم) كان التعبير (هذا شيء عجيب)، وحين كان العجب أن تلد امرأة عجوز عقيم كان ذلك العجب أكبر من سابقه فكان التعبير بزيادة (إنَّ) واللام المؤكدة (إنَّ هذا لشيء عجيب)،أمّا حين كان العجب أنَّ الرسول جعل المعبود الحق إلهاً واحداً، بينما الأمر في نظرهم أن يكونوا آلهة، وليس إلهاً واحداً فقد بلغ العجب مداه وأقصاه فكان التعبير(إنَّ هذا لشيء عجاب) فجاء بأنَّ واللام وصيغة(عجاب)؛ لأنَّ فُعَال أبلغ من صيغة فعيل في اللغة[٦٧]. وتنوع صيغ المصدر مع الفعل كذلك يشكل وجهاً آخر من وجوه توظيف مفردات اللغة صوتاً ودلالة في القرآن الكريم ، فمن ذلك أن يأتي القرآن الكريم بالفعل ثم لا يأتي بمصدره بل بما يلاقيه في الاشتقاق فيجمع بين معنى الفعل ومعنى المصدر من طريق وأيسره . ومثاله قوله تعالى((واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا))(سورة المزمل: ٨) ، فجمع بين التبتل والتبتيل ، فالتبتل يفيد التدرج والتكلف والمشقة، وأمّا التبتيل فيفيد التكثير والمبالغة ، فجاءت الآية بالفعل لمعنى التدرج ثم جاءت بالمصدر لمعنى التكثير، وجمع المعنيين بما لكل منهما من أداء صوتي متميز في عبارة واحدة موجزة لو جاء بغير ذلك لم يفد ما أفاد وروده على هذه الصيغ، فكأنَّه قيل:((بتل نفسك إلى الله تبتيلاً، وتبتل إليه تبتلاً))، ففُهِمَ المعنيان من الفعل والمصدر، وهذا كثير في القرآن الكريم، وهو من حسن الاختصار والإيجاز.

وفي صيغة (تبتل إليه تبتيلاً)توجيه تربوي حكيم، فكأنَّه قال للرسول ﷺ : احمل نفسك على التبتل والانقطاع إلى الله في العبادة شيئاً فشيئاً حتى تصل إلى الكثرة، فجاء بفعل(تبتل)أولاً ثم (تبتيلاً)بعدها أخذاً بالابتداء بالتدرج والانتهاء بالكثرة، وليس من الحكمة مخالفة هذا الترتيب كما أنَّه جاء بالفعل (تبتل)على صيغة التجدد والحدوث، وجاء بالمصدر(تبتيلاً)على صيغة الكثرة والثبوت لأنّها الحالة المرادة في العبادة[٦٨]. وفي صيغ الجمع يتحرك التعبير القرآني في ساحة واسعة من الخيارات والبدائل وفق ما يقتضيه سياق النظم وتوجيه المعنى، ومن ذلك دقة استخدام كل من جمع الكثرة وجمع القلة. ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى((مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم))(سورة البقرة: ٢٦١)، وفي قوله تعالى على لسان الملك في قصة يوسف((وقال الملك إني أرى سبع بقرات يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات))(سورة يوسف: ٤٣) ،فالعدد في الآيتين واحد هو سبع، لكنه استعمل مرة سنابل ومرة سنبلات ، إذ تمثل الأولى جمع الكثرة، والثانية جمع القلة، وكل صيغة أدت مهمتها فكانت(سنابل)في مقام التكثير ومضاعفة الأجر صوت إثارة وتحفيز، بينما الثانية(سنبلات)لا مقتضى في المعنى والسياق لتكثيرها فجاءت على صيغة القلة[٦٩].

سادساً : صيغ كثر ورودها وأخرى قليلة:

وهناك صيغ كثر ورودها في القرآن الكريم وصيغ أخرى قلَّ ورودها ، فقد كثر الفعل(ينفق، ينفقون) مضارعاً وماضياً وأمراً أكثر من سبعين مرة، بينما ورد الاسم(المنفقين)مرة واحدة، وكل من (نفقة، نفقات، الإنفاق) مرة واحدة أيضاً[٧٠]. ومثل ذلك فعل (يستغفرون)واسم(الاستغفار)،وذلك لما في الفعل من إشارة إلى تكرار وتجدد ، وهي طبيعة الإنفاق أو الاستغفار أن يتكرر ويتجدد مرة بعد أخرى وهو هدف في التوجيه القرآني ليتكرر الإنفاق فيصبح ميلاً أصيلاً ثابتاً في نفس المؤمن[٧١].

سابعاً: التنوع في حالات الإبدال والإدغام:

هذا التنوع يشكل مظهراً أخر من مظاهر توظيف المفردات في القرآن الكريم من مثل (اطيرنا ، تطيرنا) فقوله تعالى((قالوا إنَّا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم))(سورة يس: ١٨)، وقوله تعالى: ((قالوا اطيرنا بك

وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون))(سورة النمل: ٤٧)،فالكلمتان أصلهما واحد ووزنهما واحد لكن(اطيرنا)أضيفت في أولها همزة الوصل؛ لانّ تفعّل سكنت وأبدلت طاء وأدغمت في الطاء الثانية، وطبيعي وفق ما قدمنا من أنَّ اختلاف اللفظ في الصيغتين يوحي بتميز كل منهما في جزء من المعنى العام الجامع لها، فالقوم في (تطيرنا) لم يبلغ بهم الضيق مبلغ الشدة التي بلغتهم في الثانية حين قالوا:((اطيرنا بك وبمن معك))؛لأنَّ الإدغام جاء مقصوداً ولم تلجئ إليه ضرورة، فهو إدغام للتعبير عن شدة الضيق الذي ألمَّ بهم؛ ولأنَّ الضيق عبر عن شدته هنا في قولهم:((بك وبمن معك))[٧٢].

النتائج

وقد توصل البحث إلى نتائج يمكن أن نذكر منها:

١- راعى السياق الصوتي التوازي والانسجام بين الأصوات عند توزيع الحروف في الكلمات التي اختارها تركاً للاستثقال وتجنباً لجمع الأصوات متقاربة المخارج.

٢- تنوع النسق الصوتي بتنوع الأجواء التي يعرضها السياق، فهناك موسيقى الدعاء ، وموسيقى تصويرية تعبر عن تبدل مظاهر الكون ونحو ذلك.

٣- يمثل النسق الصوتي ظاهرة من توالي التعبيري المطرد الذي لا يقف عند حدود المفردة أو الجملة ، إذ تبدو الظاهرة الصوتية في النسق أو الخطاب أكثر وضوحاً.

٤- اتخذ السياق القرآني وسائل عدة في استخدام الأداء الصوتي للدلالة على المضمون من مثل:

أ: عدوله عن الصورة القياسية للكلمة إلى صورة أخرى ، وهو نوع من توظيف اللغة في خدمة المعنى إيقاعاً وموقعاً.

ب: استخدم القرآن الكريم ألفاظاً وترك ألفاظاً أخرى ، فجاء التعبير محافظاً على سموه المطرد في الأداء والدلالة.

٥- ظهر لنا من خلال البحث القيمة الخاصة للمفردة صيغة وإيحاءً من حيث اعتبارها عنصراً فاعلاً في منح التعبير دلالته وجماليته بعد دخوله عالم النسق وبهذا يحمل اللفظ في النسق مهمتين تؤدي إحداهما معناه في السياق وتؤدي الثانية تناسقاً في الإيقاع ، والتركيب الصوتي يخدم الدلالة دون أن يخضع النظم فيه للضرورات.

هوامش البحث

(١) ينظر: النسق القرآني: ٥٠.

(٢) ينظر: مخارج الحروف وصفاتها: ٥٥.

(٣) ينظر: التمهيد في معرفة التجويد: ٢٧٩، وسراج القارئ: ٤٠٠، والمنح الفكرية: ٧٠.

(٤) ينظر: أسرار معجزة القرآن الكريم: ٣٢٤ ـــ ٣٢٧.

(٥) ينظر: وجوه من الإعجاز الموسيقي في القرآن: ٣٨.

(٦) الخصائص: ٥٤/١.

(٧) البيان والتبيين: ٣٩/١.

(٨) المثل السائر: ١٦٦/١.

(٩) ينظر : البرهان في علوم القرآن: ٣١٤/١ ـــــ ٣٤٠.

(١٠) البيان والتبيين: ١٢/١.

(١١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٤٢٢/٥ ـــــ ٤٢٣ ، ٢١/٦.

(١٢) ينظر: النسق القرآني: ٥٥.

(١٣) الخصائص: ١٤٥/٢، ١٥٢.

(١٤) ينظر: النسق القرآني: ٥٧.

(١٥) رواه النسائي في سننه: ٢/ ١٨١.

(١٦) ينظر: صحيح مسلم بشرح النووي: ٧٧/٤.

(١٧) ينظر : وجوه من الإعجاز الموسيقي في القرآن: ٢٦.

(١٨) ينظر: وجوه من الإعجاز الموسيقي في القرآن: ٣٩.

(١٩) ينظر: المصدر نفسه: ٣.

(٢٠) ينظر: تجويد الفاتحة: ٦٠ـــــ٦٢.

(٢١) وجوه من الإعجاز الموسيقي في القران: ٩٩.

(٢٢) ينظر: حق التلاوة .هامش رقم (١): ٢١٨.

(٢٣) التيسير في القراءات السبع: ٢٢٥.

(٢٤) وجوه من الإعجاز والموسيقى في القرآن: ٦٣.

(٢٥) معاني القرآن للفراء: ٢٦٧/٣.

(٢٦) سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة: ٢٩٢.

(٢٧) التفسير الكبير للرازي: ١٩٤/١٦.

(٢٨) ينظر: الكشاف: ٧٦٤/٤، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٣٢٣/١٠.

(٢٩) ينظر: النبأ العظيم: ١٣١-١٣٢.

(٣٠) النسق القرآني: ٦٤.

(٣١) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: ١١٤.

(٣٢) الأساس في التفسير: ٥٣٥٣/٩.

(٣٣) روح المعاني: ٩٧/٢٦.

(٣٤) إنباه الرواة: ٥/١.

(٣٥) ينظر: النسق القرآني: ٦٦.

(٣٦) ينظر: التيسير في القراءات السبع: ٣٠٩.

(٣٧) ينظر: نظم الدرر: ٤٤١/٣.

(٣٨) العنصر الدلالي المجرد في وظائف التاء العربية: ٥٨.

(٣٩) ينظر: التيسير في القراءات السبع: ٢٩٧.

(٤٠) النسق الصوتي: ٦٧.

(٤١) دراسات جديدة في إعجاز القرآن: ٤١.

(٤٢)المصدر نفسه: ١١٠.

(٤٣) ينظر التعبير القرآني: ١٥٣.

(٤٤) ملاك التأويل: ٦٥٤/٢.

(٤٥) البرهان في متشابه القرآن: ٢٣٣.

(٤٦) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ٢٣٤.

(٤٧) الكشاف: ١٢/٣.

(٤٨) نظم الدرر: ٤٨٨/٨.

(٤٩) النسق القرآني: ٧٣.

(٥٠) إعراب القرآن الكريم وبيانه: ٣١/٩.

(٥١) نظم الدرر: ٦٢٦/٦ ـــ ٦٢٧.

(٥٢)المصدر نفسه: ٣٤٧/٧.

(٥٣) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: ٢٤.

(٥٤) ينظر: الكشاف: ٣٢٧/٣.

(٥٥) ينظر: الخصائص: ١٥٢/٢، والبرهان في علوم القرآن: ٣٩/٣.

(٥٦) التصوير الفني في القرآن: ٩٣ ـــ ٩٥.

(٥٧) ينظر: في ظلال القرآن: ٢٢٣/٤.

(٥٨) ينظر: النسق القرآني: ٨٠.

(٥٩) ينظر: المصدر نفسه: ٨٢.

(٦٠) ينظر: إعجاز القرآن للرافعي: ٢٢٩ ـــ ٢٣٣.

(٦١) فقه اللغة وخصائص العربية: ١١٥.

(٦٢) سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة: ٥٠٣.

(٦٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٦٤) ينظر: دراسات جديدة في إعجاز القرآن: ١٢٥ ـــ ١٢٧.

(٦٥) ينظر: لسان العرب مادة (أثم) ٥/١٢ ـــ ٦.

(٦٦) ينظر: سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة: ١٣٣ ـــ ١٣٤.

(٦٧) ينظر: التعبير القرآني: ٣٧.

(٦٨) ينظر: التعبير القرآني: ٣٤.

(٦٩) ينظر: التفسير القيم: ١٥٤ ـــ ١٥٥، والبرهان في علوم القرآن: ٢٢/٤.

(٧٠) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ٨٠٨ ـــ ٨٠٩.

(٧١) ينظر: معاني الأبنية في العربية: ٥٧.

(٧٢) سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة: ١٠٣ .

المصادر والمراجع

١-الأساس في التفسير: سعيد حوّى، ط١، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ـــ مصر، ١٩٨٥م.

٢- أسرار معجزة القرآن الكريم: عبد الحليم الخطيب، تقديم: د. إبراهيم محمد السلقيني، ط١، دار القلم العربي ـــ حلب ـــ سوريا ، ١٩٩٧م.

٣-إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي، ط٨ ، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ

٤- إعراب القرآن الكريم وبيانه: محيي الدين درويش، دار ابن كثير ، دمشق ـــ سوريا ، ١٩٨٨م .

٥- إنباه الرواة : للقفطي، دار الكتب المصرية ، ط١ ، ١٩٥٢ ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم .

٦- البرهان في علوم القرآن: للزركشي ، تحقيق : مصطفى عبد القادر عطا، دار الفكر، بيروت ـــ لبنان ، ط١ ، ١٩٨٨م .

٧- البرهان في متشابه القرآن: محمود بن حمزة الكرماني، تحقيق: أحمد عز الدين عبد الله خلف ، دار الاعتصام ، القاهرة ـــ مصر ، ١٩٨٧م .

٨- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: د. فاضل صالح السامرائي ، ط١ ، دار عمار ، الأردن ، ١٩٩٩م .

٩-البيان والتبيين: لأبي عمرو الجاحظ، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية، بيروت ـــ لبنان .

١٠- تجويد الفاتحة : حسني شيخ عثمان، ط١ ، دار المنارة للنشر والتوزيع ، جدة ، المملكة العربية السعودية، ١٩٩٧م

١١- التصوير الفني في القرآن : سيد قطب ، ط٢٠ ، دار الشروق ، القاهرة ـــ مصر ، ٢٠١٠ م .

١٢- التعبير القرآني : د. فاضل صالح السامرائي ، دار الكتب للطباعة والنشر ، الموصل ، العراق .

١٣- التفسير القيم : لابن القيم الجوزية ت(٧٥٢ه) ، جمع : محمد أويس الندوي ، مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ـــ مصر ، ١٣٨٦ه ـــ ١٩٧٣م.

١٤- التفسير الكبير : للإمام الفخر الرازي ، ط٣ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ـــ لبنان .

١٥- التمهيد في معرفة التجويد: أبو العلاء الحسن بن أحمد العطار الهمذاني ، تحقيق : د. غانم قدوري الحمد ، ط١ ، دار عمان ، الأردن ، ٢٠٠م .

١٦- التيسير في القراءات السبع : لأبي عمرو الداني ، ت٤٤٤ه ، تحقيق : أ.د حاتم صالح الضامن ، ط١ ، مكتبة الصحابة ، الشارقة ـــ الأمارات ، ١٤٢٩ه ـــ ٢٠٠٨م .

١٧-الجامع لأحكام القرآن : لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، راجعه وضبطه وعلق عليه : د. محمد إبراهيم الحفناوي ، خرّج أحاديثه : د. محمود رجب عثمان ، دار الحديث ، القاهرة ، مصر ، ١٤٢٣ه ـــ ٢٠٠٢م .

١٨- حق التلاوة : حسني شيخ عثمان ،ط١،دار جهينة للنشر و التوزيع ،عمان_الأردن،.٢٠٠٤

١٩- الخصائص: لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد علي النجار، ط٢، دار الهدى، بيروت ـ

٢٠- دراسات جديدة في إعجاز القرآن: د. عبد العظيم المطعني ، ط١ ، مكتبة وهبة ، القاهرة، ١٩٩٦م .

٢١- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: لأبي الثناء الآلوسي البغدادي، ط٤، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ـــ لبنان.

٢٢- سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة من أصل لغوي واحد في القرآن : عودة الله منيع القيسي ، ط١ ، دار البشير ، الأردن ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ـــ لبنان ، ١٩٩٦م .

٢٣- سراج القارئ المبتدي وتذكار المقرئ المنتهي: أبو القاسم علي بن عثمان البغدادي ، تحقيق : علي محمد الضباع ، ط٣ ، مطبعة الحلبي ، القاهرة ـــ مصر ، ١٩٥٤م .

٢٤- سنن النسائي : للإمام النسائي ، المطبعة الأزهرية ، القاهرة ـ مصر .

٢٥- صحيح مسلم بشرح النووي ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الفكر ، بيروت ـــ لبنان ، ١٩٧٨م.

٢٦- العنصر الدلالي المجرد في وظائف التاء العربية : د. أحمد طلعت سليمان ، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، العدد ٣٢ ، المجلد الثامن ١٩٨٨م ، الكويت .

٢٧- فقه اللغة وخصائص العربية : محمد المبارك ، ط٧ ، دار الفكر ، بيروت ـــ لبنان ، ١٩٨١م .

٢٨- في ظلال القرآن: سيد قطب ، ط٥ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ـ لبنان ، ١٩٦٧م.

٢٩- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: للزمخشري ، تحقيق : عبد الرزاق المهدي ، ط١ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ـــ لبنان ، ١٩٩٧م .

٣٠- لسان العرب: لأبي الفضل محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي ت ٧١١ه ، حققه وعلق عليه ووضع حواشيه : عامر أحمد حيدر،راجعه: عبد المنعم خليل إبراهيم ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان ، ١٤٢٤ه ـــ ٢٠٠٣ م .

٣١- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين بن الأثير، تحقيق : د. أحمد الحوفي ، د. بدوي طبانة ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، مصر .

٣٢- مخارج الحروف وصفاتها: أبو الإصبع السماني الأشبيلي(ت٥٦٠ه) ، تحقيق : د. محمد يعقوب التركستاني ، ١٩٨٤م.

٣٣- معاني الأبنية في العربية : د. فاضل صالح السامرائي،ط٢،دار عمار ،عمان _الأردن،١٤٢٨ه_٢٠٠٧م.

٣٤- معاني القرآن: للفراء ، تحقيق: أحمد يوسف بخاتي ، ومحمد علي النجار ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ـ مصر.

٣٥- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الحديث ، القاهرة ـــ مصر ، ١٤٢٢ه ـــ ٢٠٠١م .

٣٦- ملاك التأويل : أحمد بن الزبير الغرناطي ، تحقيق: د. محمود كامل أحمد ، دار النهضة العربية ، بيروت ـــ لبنان ، ١٩٨٥م .

٣٧- المنح الفكرية على متن الجزرية: الملا علي بن سلطان القاري ، ط١ ، تحقيق : عبد القوي عبد المجيد ، مكتبة الدار ، المدينة المنورة ، ١٤١٩ه .

٣٨- وجوه من الإعجاز الموسيقي في القرآن: محيي الدين رمضان ، دار الفرقان ، عمان ـــ الأردن ، ط١٩٨٢،١م

٣٩- النبأ العظيم: د. محمد عبد الله دراز ، خرّج أحاديثه: عبد الحميد الدخاخيني ، ط١ ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، المملكة العربية السعودية ، ١٩٩٧م .

٤٠- النسق القرآني دراسة أسلوبية: د. محمد ديب الجاجي ، ط١ ، دار القبلة للثقافة الإسلامية ، جدة ، المملكة العربية السعودية ، ١٤٣١ه ـــ ٢٠١٠م .

٤١- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي ، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ـــ لبنان ، ١٩٩٥م.